(٢٩)

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء).

ش: أي: من الوعيد، والمراد: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء. جمع نوء وهي منازل القمر.

قال أبو السعادات: وهي ثمان وعشرون منزلة. ينزل القمر كل ليلة منزلة منها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذاو وإنما سمى نوءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أي نهض وطلع.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]).

ش: روى الإمام أحمد والترمذي - وحسنه - وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٢] يقول: شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا: بنجم كذا وكذا»[1] وهذ أولى ما فسرت به الآية.

وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم وهو قول جمهور المفسرين وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية.

قال ابن القيم رحمه الله: أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم: التكذيب به، يعني القرآن.

قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون قال: وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة، حديث (٣٢٩٥)، وأحمد في مسنده (١/ ٨٩)، حديث (٦٧٧)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٠٧- ٢٠٨)، والضياء في المختارة (٢/ ١٩١)، حديث (٥٧١)، وفي إسناده عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو ضعيف. وانظر ضعيف الترمذي.

«أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[(١)] رواه مسلم).

ش: أبو مالك اسمه الحارث بن الحارث الشامي. صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام. وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا.

قوله: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن) ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث، سموا بذلك لفرط جهلهم. وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية، فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو أكثرها. وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًّا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فإن في ذلك ذمًّا للتبرج وذمًّا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

قوله: (الفخر بالأحساب) أي التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعًا: «إن الله قد أذهب عنكم عُبية الجاهلية[(٢)] وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام - إنما هم فحم من فحم جهنم - أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[(٣)] الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: التشديد في النياحة، حديث (٩٣٤).

(٢) العُبِّيَّة: الكبر والنخوة، يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها. انظر الغريب للخطابي (١/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب، حديث (٥١١٦)، والترمذي، حديث

قوله: (والطعن في الأنساب) أي الوقوع فيها بالعيب والتنقص.

ولما عير أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه قال له النبي ﷺ: «**أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**» متفق عليه [١].

فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: (والاستسقاء بالنجوم) أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم. كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أخاف على أمتي ثلاثًا: استسقاء بالنجوم. وحيف السلطان. وتكذيبًا بالقدر**» [٢].

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا. فلا يخلوا: إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في إنزال المطر. فهذا شرك وكفر. وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعًا، أو يدفع عنهم ضرًا. أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله. كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنة: الشرك.

وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلا، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده. لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم.

والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح في الفروع: بأنه يحرم قول: مطرنا بنوء كذا، وجزم في الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز، ولم يذكر خلافًا.

وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق

(٣٩٥٥)، وهو حسن، وانظر صحيح الجامع (١٧٨٧، ٥٤٨٢)، صحيح الترغيب (٢٩٦٥)، غاية المرام (٣١٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك. . .، حديث (٣٠)، مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس، حديث (١٦٦١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٨٩)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٤٥٥)، حديث (٧٤٦٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٠٨)، حديث (١٨٥٣)، من حديث جابر بن سمرة، وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٣٠٢٢)، الصحيحة (١١٢٧).

مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء، فيكون ذلك شركًا أصغر. والله أعلم.

قوله: (والنياحة) أي رفع الصوت بالندب على الميت، لأنها تسخط لقضاء الله، وذلك ينافي الصبر الواجب، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة.

قوله: (والنائحة إذا لم تتب قبل موتها) فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم، هذا مجمع عليه في الجملة، ويكفر أيضًا الحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك بالله شيئًا.

وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعًا: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [(١)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان.

قوله: (تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب).

قال القرطبي: السربال واحد السرابيل، وهي الثياب والقمص، يعني أنهن يلطخن بالقطران، فيكون لهن كالقمص، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد.

ورُوي عن ابن عباس: أن القطران هو النحاس المذاب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» [(٢)]).

ش: زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (صلى لنا رسول الله ﷺ) أي بنا، فاللام بمعنى الباء. **قال الحافظ**: وفيه إطلاق ذلك مجازًا. وإنما الصلاة لله.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: في فضل التوبة والاستغفار...، حديث (٣٥٣٧)، وابن ماجه، حديث (٤٢٥٣)، وأحمد في مسنده (٢/ ١٥٣)، حديث (٦٤٠٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٩٥)، حديث (٦٢٨) وهو حسن، وانظر صحيح الجامع (١٩٠٣)، صحيح الترغيب (٣١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سَلَّم، حديث (٨٤٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧١).

قوله: (بالحديبية) بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل.

قوله: (على إثر) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور، وهو ما يعقب الشيء.

قوله: (سماء) أي مطر؛ لأنه ينزل من السحاب، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

قوله: (فلما انصرف) أي من صلاته، أي التفت إلى المأمومين، كما يدل عليه قوله: «**أقبل على الناس**» ويحتمل أنه أراد السلام.

قوله: (هل تدرون) لفظ استفهام ومعناه التنبيه.

وفي النسائي: «ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟»[1] وهذا من الأحاديث القدسية.

وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم.

قوله: (قالوا الله ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب للمسئول إذا سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه. وذلك يجب.

قوله: (أصبح من عبادي) الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

قوله: (مؤمن بي وكافر) إذا اعتقد أن للنوء تأثيرًا في إنزال المطر فهذا كفر؛ لأنه أشرك في الربوبية. والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر، لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سببًا لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمته يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء.

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز. وأيضًا الباء تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة، لما عرفت من أن هذا باطل. ولا تصدق أيضًا على أنها للمصاحبة، لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه، وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله. فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهى عنه فاسد.

فيظهر على هذا تحريم هذه اللفظة مطلقًا لفساد المعنى. وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب الفروع والإنصاف.

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب: الاستسقاء، باب: كراهية الاستمطار بالكوكب، حديث (١٥٢٥) وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٧٠٢٨).

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع يشير إلى أنه الإخلاص).

قوله: (فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته) فالفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة والعلم، وصفات الأفعال، كالرحمة التي يرحم بها عباده. كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف.

وفي هذا الحديث: أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: (وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا) إلى آخره، تقدم ما يتعلق بذلك.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع).

يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من كفر النعم، لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب نسبة إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث. فنهى الشارع عن إطلاق ذلك لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم. انتهى.

قوله: «فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد» يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أن النوء فيه شيئًا من التأثير.

والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره. فلا اعتراض عليه بلآية للاحتمال المذكور.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما من حديث ابن عباس معناه، وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوءُ كذا وكذا. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]).

ش: وبلفظه عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح

من الناس شاكر، ومنهم كافر». قالوا: هذه رحمة الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فقال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥][(١)].

هذا قسم من الله عز وجل، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] فتكون «لا» صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر، أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ [الواقعة: ٧٥] فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد فقيل: أُقسم.

ومواقع النجوم، قال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية.

ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء. وقال مجاهد: مواقع النجوم مطالعها ومشارقها. واختاره ابن جرير.

وعلى هذه فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية. فجمع بين الهدايتين.

مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة. وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس.

والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول ذكره ابن القيم رحمه الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦] قال ابن كثير: أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن، أي إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر أو كهانة، أو شعر. بل هو قرآن كريم أي عظيم كثير الخير؛ لأنه كلام الله.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧٣). ولم أجده في البخاري.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله.

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف «**الكريم**» بالحسن، قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكْنُونٖ﴾[الواقعة:٧٨] أي في كتاب معظم محفوظ موقر، قاله ابن كثير.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةِۭ﴾[عبس:١٣-١٦].

ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩] فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه.

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩] قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩]. قال: الكتاب الذي في السماء، وفي رواية: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩] يعني الملائكة.

وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون. فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس، واختار هذا القول كثيرون، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه.

وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء:٢١٠-٢١٢].

قال ابن كثير: هذا قول جيد. وهو لا يخرج عن القول قبله، وقال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به.

قال ابن القيم رحمه الله: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يتلذذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقًّا، وأنزله على رسوله وحيًا. لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩] أي من الجنابة والحدث، قالوا:

ولفظ الآية خبر معناه الطلب.

قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف. واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: **«أن لا يمس القرآن إلا طاهر»** (١).

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠].

قال ابن كثير: هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع. وفي هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم رحمه الله: ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] **وقوله**: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] هو إثبات علو الله تعالى على خلقه. فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] لأنا نقول: إن الذي أنزلها فوق سماواته. فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم رحمه الله: وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لها وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثًا. لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله. واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق. وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس. وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] **قال مجاهد**: أتريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم؟.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ثم وبخهم على وضعهم الادهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويُعرف به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٩)، حديث (٤٦٩)، والدارقطني في سننه (١/ ١٢٢)، حديث (٥)، والبيهقي في الكبرى (١/ ٨٧)، حديث (٤١٣) وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٧٧٨٠)، الإرواء (١٢٢).

الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر.

فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا تمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به؟

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] تقدم الكلام عليها أول الباب، والله تعالى أعلم.

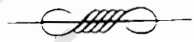

obeikandl.com